رجل بلا جدران

قصة بقلم حيدر حيدر

ـ هذه المدينة منخورة الجوف ، مرمية في ابدية غاضبة ، قرب قاع البحر ، نماذجها عادية ، وبشرها يتجيفون تحت الشمس ، يميعهم الجشع ، ولم تلد حتى الان انسانا مدركا يفهم فجاة ...

كان معن ، يحدثني بذلك ونحن نجلس في المقهى المجاور للمعبد الروماني ، ذي الحجارة القرميدية اللون .

قلت « لمعن » : ـ هذا المعبد الذي تحول متحفا ، تخيفني حجارته ، جدرانه تنتصب في حقيقية ، تكاد ترعف دمي ، لو استطيع نسفه ...

صمت معن وهو يتملاني ، كان يعي تماما ... تمطى وغمز بعينه ، وهو يخفي بسمة لعينة :

ـ اما آن لك ان تحطم جدرانك ، الى متى تبقى مصعوقا ..؟؟ بلعنة الزواج ، وانت لا تصلح لان تكون الا ذاتك .. اسمع « عادل » ! سارحل هذا العام الى الاسكندرية ، ما رايك ..؟؟

ـ ستظل ابدا شبقا للمجهول .. انت لا تنتمي لمكان ما في هذا العالم .. ماذا تعني بالنسبة لك هذه الاسكندرية ..؟؟ شوق الهرب ام البحث عن « هيلين » جديدة ...

زم شفتيه ورفعني بطرفه : ـ بل هرب من وجوه تعرفني للارتماء في دوامة كشف وجوه جديدة ... انني احب الاسكندرية لجدرانها اللامتناهية ...

كانت امي مريضة ، وكنت انتظر كشف الدم ، فقد وقعت فريسة تسمم مفاجيء ، يستطيع ان يودي بحياتها دون ان يكون لي اي راي في الموضوع ، وسالت معن : انت اليوم راحل الى دمشق ، للتسجيل في الجامعة ، وفي الرابعة والنصف ، ساكون في الصيدلية ، مارايك ان نسكر ..؟؟

ابتسم للنكتة مرددا : ـ كنت افكر بتضحيتك بنصف ليرة ، ثمن فنجاني قهوة ، فاية طائية تمتاحك الان ، هل تريد ان تحيا لحظة « كامو »؟

ـ دعنا منهم بحق كل شياطين الارض ، لقد افسدوا حياتنا بالوعي ، الاخرون مبعدون عنا ، لاننا لانفرق في التفاهة والسطحية ، وابدا نتحدث عن الحرية والموت والماساة ، نحن معقدون بفراوة ، لاننا بدانا ندرك شيئا عن تموضع الانسان في العالم ..

قفزت عن الكرسي باتجاه مقصورة المشروب ، وطلبت لحما وبيرة ، ودخانا اميركيا ، نشربه في العام مرة ، وعدت لاراه يلف لفافة حموي من علبتي التي بدات تحتفر ، وابتدرني :

ـ ماذا طلبت ايها البورجوازي المترف ؟

ـ لحما وبيرة ، ودخانا يسيل لعابك لمراه ...

ـ لم احلم بهذه الوليمة ، انك هائل مخيف ، عيبك الوحيد ، انك متزوج ..

ـ لهذه الوليمة ثمن ، لن تذهب الى دمشق الليلة .. بالمناسبة ، لماذا لا نحاول ان نبدا حياة جديدة ، ليس فيها زوجة او جامعة ، منزوعة من كل مستقبل ، احس احيانا برغبة تحطيم الاسطورة ، لانني بدات اعي عدم صلاحي لشيء ، كما قلت ، ان اكون انا فقط ..

رد معن في انهزامية ثابتة : ـ انا لا احتمل العذاب والتشرد فوق حدود احتمالي ، انت تحمل رغبة تشرد قديمة ، وتحس بحنين لا متناه للعودة الى الغابة ، ولديك جدرانك التي تضغط ابدا عليك ، وتهصر حريتك ..

احسست فشلا يقف بيننا ، وفكرت « لمعن » جدوره التي تشده الى ارضه ، وانا ابدو مقتلعا ، رغائبي تسقط في بالوعة ايام مهترئة ، بروتينها وصفارها ، سابدا رحلتي وحيدا في يوم لم يحدد بعد » .

اقبل النادل بالبيرة والطعام ، ونزع السدادات ، فارتمت على الارض يتيمة ، تداس باي قدم ، ونظرت اليها « انها في ارتمائها اكثر حرية مني » .

كان ظهري لجدار المعبد العتيق ، وكان معن في مواجهة الحجارة الصلبة ، عندما هتف : لشد ما اتمنى لو اربح جائزة اليانصيب ... خمن ماذا اصنع بها ..؟؟

بدات اصب البيرة في الكاس : ـ نسكر بقسم ، وتشتري كتبا بقسم اخر ، ونقطع جواز سفر بالقسم الباقي ، لنعانق فيه المتاهات البعيدة ..

صرخ : ـ لا شيء من هذا كله ، اشلحها لاهلي ، ردا لهم على الاعانة ، واستلم حريتي ، عندها نتشتت في العالم بطريقتنا الخاصة المتمردة على كل ضبط ...

بدانا نمتص البيرة ، ونلتهم اللحم ، وفجاة ارتمت علبة « ل.م » بيننا ، ولمع بريق في عيني معن : فعلا انت متخم بالترف ، انك تخدرني بلحظة مسروقة من حياة الاغنياء ، لالعن فيها كل جامعات العالم ، متى تعود الى القرية ..؟؟

ـ لتشبع بيرة و « ل.م » ام لانك مطارد وتريد اسقاطي في الفخ ، كن مطمئنا انني لن اعود ، اما يكفيها العار والزيف والقمار يتجيف في ازقتها ؟ .

ـ الم تسبقنا الى المستنقع ؟

ـ لقد خلصت اخر قدم .

بدانا نشرب البيرة في شغف ، وخيمت لحظة صمت ، كنت افكر فيها بامي المريضة في القرية ، وزوجتي المريضة في المدينة « لماذا انا ملاحق بسياط المرض وسط عالم يضج بالاصحاء » وكنت اتساءل في خيبة :

ـ لماذا نمرض ؟ لماذا نحزن ؟ لماذا نموت ؟

وسالت معن : ـ ماهي احوال زهير ؟ اتمنى ان اراه ، لم اكتشفه بعد ، فلديه قدرة هائلة على الفهم بسرعة ، انا افهم ببطء ، وهو يعي اكثر منا .

ورد : ـ انه يقرا وكانه يتقدم لامتحان ، ولديه وقت كاف ، ويعيش تجارب واسعة ، بورجوازي مثلك ، يشتري اي كتاب يصدر في السوق فورا ، لقد ذكرتني ، اوصاني ان اتي له « بالانسان المرصار » لديستوفاسكي من المكتبة .

ـ سالت عن الكتاب ، ليس موجودا .

ـ اوص على نسخة من بيروت .

ـ هذا الخنزير ، حرامي كتب من الدرجة الاولى ..

كان « زهير » يدرس في جامعة القاهرة صحفيا ، وكانت لديه مقدرة « شنيعة » حسب تعبيره على التهام الافكار ، حدثني يوما في نفس المقهى عن فلسفة « كامو » عن الانتحار والنفوذ الى ماوراء العدمية ، والاسطورة والحنين ، كان يأتي بتعابير كامو كما هي بالكتاب ، ولقد اوضح لي فكرة سقوط الموت في لحظة ادراكه، واشتركت معه في نقاش في مقهى « الشاطيء الازرق » حول « المهزومون » والانتحار ، كنت ماخوذ بالرواية لانها عانقت الفشل بحرارة ، فانا اعتبر الفشل هو دوامتنا ، ونحن منجذبون نحوها باصرار ، وعنف .

عندما ناقشت « زهير » غمز في خبث : ـ هل تعتبر ان «المهزومون» فشلت ؟ انها في نظري انحدار شنيع ..

ورددت : ـ بل انتصرت في عطاء الفشل ، لقد حملت بالانحدار ، وليس هناك اي انحدار ، الفشل مقيم فيها ببساطة انها انت ، وانا ، وحفنة من الاخرين ، الذين يرفضون هذا العالم المشنوق في زيفه، ومعنى هذا ان نسقط في الدوامة ...

ـ مارايك بنهايتها المصطنعة ..

ـ كثيرون فكروا ان « بشر » ارتمى الجندية .. استسلم والقى تمرده ، في وقوفه امام الشباك ، ليدفع بالطرف الى الكلية كان يقف على قمة حياته ، ليرمي بنفسه الى الهاوية ... كان ينتحر ... وكانت لعنة الرواية ..

احتدم النقاش ، وكان معن يرقب المعركة ، ويرمي بحطباته في نار الجدل الدائر ، وسألني زهير :

ـ اما زلت تعتقد ان لحظة الانتحار تفوق كل شجاعات الحياة .؟

ـ زهير ! انت تتقصد الجدل والاثارة ، ونحن هنا لنفكر بالطريقة المثالية للسكر ، ضمن موازنة محدودة ، ولننتحر بعدها ، رغم هذا احب ان اقول لك كلمة : لي تجربتي الذاتية عن الانتحار ، ارفض من خلالها كل الفلسفات الاخرى عندما نقرأ افكار الاخرين ، يجب ان نحياها بصدق، نلاحظها في اطلالاتنا على الوجود ، نقبض على اللحظات العابرة ، انا لا اعيش تمرد « كامو » ولا قلق سارتر ، ولا لا انتمائية « ولسون » لي تمردي الخاص ، وقلقي المفروض ، ولا انتمائيتي المفروضة ، انهم يوضحون تجارب انسانهم ، وانا اكشف ذاتي تحت مجهر افكارهم ، كثيرون يقراونهم وهم بلا ازمات ..

تمتم زهير : ـ هل تعلم انك وقعت ولم تخرج ..؟؟

وصاح معن : ـ هذا هو القبض على اللحظة ، لقد فشل .

انهيت الجدل بكلمات : ـ ملعونون ، هيا ابحثوا خطة التلاشي ، عبر لحظة لم يحلم بها بشري ، ودعونا من الدوار في هذه الافكار العقيمة ...

ـ لا تصرخ هكذا، لا تكن سخيفا، ان افكارهم لن تقدم لنا بيرة او

ـ لاتصرخ هكذا ، لا تكن سخيفا ، ان افكارهم لن تقدملنا بيرة او عرقا او طعاما ، بدات انهالك من الجوع والعطش .

شربنا حتى الثانية بعد منتصف الليل ، وامتلكنا المدينة في تلك الليلة ، عندما استيقظنا في الصباح ، كان حزن عميق يمرق فوق رؤوسنا ، وكانت اليقظة مرعبة .

كانت اللحظة محفورة ، وعندما ودعتهم : ـ وداعا ، اننا نعود الى التبعثر ، كانت ليلة حقيقية ، ثم تلاشى كل شيء ..

صاح زهير : ـ الزواج يجتاحك كالطاعون ، يجب ان تكشف زيف العالم ..

وبقيت الكلمة تهدر في داخلي ، وانا في طريقي الى المصيف ..

كانت الساعة الرابعة ، وزجاجات البيرة فرغت ، وعلبة الدخان اوشكت على التلاشي ، وبدا رفيف من الكابة يخيم عندما مزق معن هذا السكون : ـ لاتحزن ، لا معنى لاي شيء ، اننا محاصرون ..

كنت اضع راحتي خلف راسي وانا اهتز مع الكرسي الذي ملني ، وتوقفت . مددت يدي الى الكاس :

ـ اشرب معن ... ما معنى ان تموت امي او لاتموت ، ان اترك زوجتي او ابقى بين الجدران ... ساضيق يوما بحريتي والعالم مصلوب بمآسيه وماساتنا اننا ندرك ...

انقذفنا في الشارع ، وكانت عاصفة تهب وغبار ينثر في وجوهنا يعبيء جوفنا ، والناس يمرون في الشوارع بشكل عادي محض ، مررنا على المكتبة ، تناول معن « الانسان الصرصار » واعطاني صاحبها «السلطة والفرد » لراسل ، دخلنا الصيدلية ، لم يكن الكشف قد انتهى ، عدنا الى الشارع ، لمواجهة الاعصار .

سالني معن في سخرية : ـ ما هي هوايتك ..؟؟

اجبته في لا مبالاة : ـ ان امشي تحت الشمس ارقب الوجوه العابرة ..

التقينا باشخاص من القرية ، والقينا التحية ، واكملنا السير بلا نقطة ، عدنا الى الصيدلية ، تناولت نتيجة الفحص ، وهرعت الى الطبيب ، كان هناك تسمم بنسبة عالية اشار علي الطبيب بابر المصل ، ووعدته ان اجلب امي الى العيادة ... وافترقنا .

في هذه الليلة بالذات ، كنت افكر بالحضور الى القرية ، لانام عند معن ، بعد ان فشلت في ان اترك له كلمة « لقد حطمت الاسطورة ».

جاءني خبر ان معن يبحث عني في الجبال ، بعد ان تشردت وبدات حريتي تغتالني ، يبحث عني الان بين الجدران ليعود بي مظفرا صانعا من ذاته ، اسكندر اخر ، وانا هنا بلا جدران ، اتمدد في تابوت حريتي وامضغ فشلي مع حبات الزيتون ... تحت سماء مبقعة بالنجوم ...

حيدر حيدر

أعطنا حبا

الديوان الاخير للشاعرة المبدعة

فدوى طوقان

الثمن ٣٠٠ ق.ل

صدر اخيرا عن

دار الآداب